أجراس السقوط

ميار البكري

إهداء إلى..

إلى من على حافة الموت و لم يأخذوا القرار..

إلى من راودتهم الحياة عن نفسهم ألف مرة ولكن..

هم أقوياء..

الآن علمت لمن أهدى كلماتى و حياتى.

للأقوياء

ميار البكرى

برمينجهام - ٢٠١١

السبت ١٢ بعد منتصف الليل..

تقف فى شـــرفتها هادئـــة، كهدوء الســـحاب فى ليلـــة ممطرة.. كالصمت الذى يســـبق العاصفة، كالموج بلا رائحة، بلا لون، بلا حياة. تحتسى كوباً من الواقع مع أسراب من الطيور الهاربة من عالمنا الكئيب إلى عالم أكثر حياة و قوة. تنظر إلى المياة المتدفقة من البحر الكامن أمام بيتها.. ترى، ما هو ســـر وجود هذا البحر أمام عينيها الآن؟

هل علـــم الله بحلم انتحارها؟ أم رأى الله مـــا صارعته وما تبقى من روحها الفانية فســـاعدها فى الاختيار و ســـهلة عليهـــا؟ حقاً لا تدرى، تســـاءلت لماذا قررت أم كلثوم مصاحبتها فى آخر لحظات حياتها؟ فهى دائماً تصاحبها فى لحظات تعاستها و غضبها على مدى الحياة.. تحبها عندما تراها تبكـــى، فتربت على أكتافها قائلة:

- صعبان علىَّ اللى قاسيته، فى الحب من طول الهجران، ماعرفش ايه اللى جنيته من بعد ما رضيت بالحرمان.

و يا الله عندما ترى ثغرها يبتسم فتقبّلها الست قائلة:

- تعـــالى تعالى تعالى تعالى، حب العمر كلـــه نخلصه حب الليلة دى، تعالى تعالى تعالى تعالى، شـــوق العمر كله نعيشـــه ماالقلب الليله دى، متخليش أشواقنا لبكره، متخليش فرحتنا لبكره، كإن أول ليلة للحب الليلة دى.

قد كانت هى من تملأ حياتها و تربت على أكتافها كل ليلة لتقاوم أوجـــاع النهار، فلم يكـــن غريباً عليها مصاحبتهـــا و توديعها فى قرارها الأخير..

وقفت متأملة المياه بركودها و ســـوادها، وظلها الخاطف للقلب قبل العين للمهمومين. كيف لبشـــر فى هـــذه الحياة أن يرى هذا البحر ولا يفكر بإنهاء حياته به؟ تصارع و تصارع و تصارع ثم تقف و تسترجع: كم كانت قوية فى قراراتها على مدى حياتها لتطلب بعدها السماح و العفو من الله على هذا القرار البغيض.

تريد أن تعرف اسمها؟ أحقاً تريـــد أن تناديها؟ لماذا تريد أن تناديها؟ أتريد أن تعرف من هى فى آخر لحظات حياتها؟ تريد أن تعرفها و تصارع معها بكل معاناتها وآلامها و بعد أن تداويها.. تذهب و تتركها لخيالها، لذكرياتها، لقهوتها.

قهوتها.. آه مـــن قهوتها! تلك من ذاقت معها مُر حياتها، تلك من باتت معها فـــى لياليها المفعمة بالوحدة والعـــذاب.. تلك من كانت تســـعدها و تشـــقيها.. قهوتها هى من كانت تربت على أكتافها فى صمت و تلهمها الصبر علـــى البقاء. حقاً مازلت تريد أن تعرف اسمها؟

هـــى ماء من جمال الميم و عذبها، ينبوع هى من الأعماق لتشـــعل به حرف اليـــاء، أصالة من طهارة الألف وقوتها بين الســـطور، و روحٌ تكمن فـــى الراء المغلقة.. هى أنا، أنا بكل شـــئ يمتزج داخلى، بكل ضمير مات بصدرى، و بـــكل حبٍّ اعتصر فى وتيني.

فلأنهـــى حياتـــى ولا بأس، لن أكترث، غداً ليـــس بأفضل و الأيام لا تجرى و الســـاعات لا تموت.

تحسست نافذتى، برقة ملمســـها و الأمطار التى هطلت عليها، كأن النافذة كانت تدمـــع من أجلى، تدمع أنها لن ترانـــى بعد اليوم، رأيت ضلوعـــى تهتز من هواءٍ كاد يعصف بى و الـــبرد يكاد يرهقنى ولكن.. أحتـــاج أن أصمد فى قرارى، ســـيكون آخر يناير فى عمرى.

ســـتكون الحياة بالنسبة لى مجرد ذكرى عابرة تمزج مشاعر مختلفة بداخلى عند سماع اسمها و أنا فوق السحاب. اقتربت كثيراً من النافذة حتى انطلق منها إلى بحرٍ أوســـع بحنانه من حياتى.. . اقتربت كثيراً كى أصل للنهاية الحتمية.

كنت أعتاد النهايـــات، فأنا لا أرى غيرها ولا أعلم غيرها فى قاموس حياتى. أشـــتاق البدايـــات و أعلم أنها قادمة ولكنى الآن اشـــتقت بداية النهاية.. بدايـــة البداية فى حياة لا نهاية لها.

لامســـت حائط شـــرفتى كى أودع كل لحظة مرت علينا معًا و أنا أحكى له خطاى و أخطائى، لامسته كثيراً وسمعت صوته و هو يتنهد و يبكى لأعود فى قرارى.. ولكن، الآن لا مجال للتراجع فهذا هو الصواب، هذا هو التحدى، هذه هى الصرخة فى وجه الحياه لأعترض على كل ما حدث لى.. . تلك هى الإرادة، البحر أمامى، ينظر لى، و ينتظر معانقتي.

وله عرش على وجه البحر و هو جالس عليه و يبعث سراياه يلقون بين الناس الشـــر و الفتن وجدتها مكتوبة على ورقة على مكتبى الذى يكمن وراء نافـــذة غرفتى. كنت قد كتبت هذه الكلمات عندما كنت أســـرد

فى أبحاثى عن الجن وملامســـتهم لحياة الإنسان، و بينما وقعت عيناى عليها رأيت ســـحراً منبعثاً من البحر ينادينى، ترى أكان الشيطان يعلم بمدى حاجتى للموت الآن فقرر أن يســـاعدنى؟ أخد القرار معى ليسهل علىَّ مهمتى؟

الآن قد حان ميعاد الانتقال، ظل أســـود منبعث من على حافة البحر يصعد إلى شـــرفتى، هكذا قال لى، أو هكذا ســـولت لى نفسى بأنى سمعت صوته يعانقنى.

قبَّلت أبى، و أخى، ولامست كتبى الحبيبة و أخذت أشم رائحتها التى كانت تمتزج بآلامى دوماً، و اتجهت نحو ســـراب حياتى الجديدة المليئة بالغموض. فتحت النافذة و أدركت قدماى حافة الشـــرفة، اســـتمتعت كثيراً بلمسات الهواء البارد فى اللحظات الأخيرة فى الحياة. لماذا أرانى أتشبث بالنظر إلى غرفتى؟ لماذا أنتِ عالقة يا فتاتى بين السماء و الأرض؟

اقفزى إلى عالم مليء بالحياة، هذه هى الحياة التى كنتِ دوماً تحلمين بهـــا.. هذه هى الحياة التى انتِ متشـــبثة بها، كـــم أضاعتك و كم أوجعتك و كم أجبرتك على فعل أشـــياء لا تريدينها.. فلتذهبى إلى حياة لا جرح فيها ولا أوجاع، اسقطى.. . اسقطى.. . اسقطى واصعدى بســـقوط إلى أعلى ولا ترتابى و أنيرى ظـــلام كونك و حياتك بحياة أخرى بقاع الظلام.

بقاع الظلام تسقط هى حاملة معها كل ما تبقى من جسد مظلم و عراقيل فى الحياة.. تســـقط هاوية، تسقط كالأمطار، نقطة بنقطة.. تـــرى فيها من أحبها و خذلها.. أعطته كل شـــئ بداخلها، كرامتها،

وقتها، كبريائها، روحها، مشاعرها، استثناءاتها.. حتى لم يعد بداخلها شئ تعطيه لأحد من بعده.

أشـــلاء محطمة تناثرت فى هوة السقوط، كم المســـافة طويلة بين الشـــرفة و البحر، لم أكن أحسبها كذلك، كان يخيل إلى أنها ثوانٍ، و آه من ارتطامى بالماء.. كم أحدث بداخلى وجعاً فى كل خلايا أعماقى على كل لحظة عشتها.. هل كان قراراً خاطئا إن أردت إنهاء حياتي؟! ولكن هل كان بيدى شـــئ آخر لأفعله بديلاً عن ذلك؟

كم هو مخيف ظـــلام المياه، كم هو يصف مـــرارة الظلم ووجعه، و ارتطام صدرى بالماء ووجع كل أشـــلائى أحدث صوتـــاً عميقاً بالآه فى داخلي.

أكاد أسمع فى داخلى الآن نســـمات مـــن أنغام لا أتذكرها، و لكنى ســـأحاول أن أتذكرها كى لا أشـــعر بوجع النفثـــات الأخيرة و دفعة الارتطام، بوجع صدرى ومفاصلى و انتهاك قوتى. نغمات تهمس فى أذنى و أنا أسمع صوت ارتطام الماء مـــن فوقى ولا أكاد أراه، فأنا أغرق ببطء إلى عتمة و تجذبنى الأعماق أكثر فأكثر، و سطح البحر يبتعد، و القاع يقترب، ولا أكاد أشعر بيدى الآن، فهى سابحة حولى و ليس عندى القدرة على التحكم بها، فهى الآن تحاول أن تمسك بحبل ربها لتشعر بالأمان.

الأمان، آه من الأمان الـــذى كانت دوماً تحلم به و لكنها لم تدركه، فهى الآن تريد أن تدركه و تلمسه بيديها لتحقق آخر أمنية كانت تحلم بها.

لابد و أن هناك أشـــياء كنت ســـأدركها لو أنى حاولت التغيير، ثمة شئ كان لابد على فعله ولكن.. هل لى الآن من عودة؟! لا لن أعود فقد انتهكتنى الحياة، ولكن.. عودى، عودى فربما تكون هناك محاولة أخرى، ربما يكون هناك سبيل آخر لحرية الروح.

أصارع لأصعد إلى الأعلى ثانية، و لكن القدر يمنعنى، و كأنه يرى لى أن الموت هو الأصلح لحياة مقودة مثل حياتى. لماذا أنا متشـــبثة بالحياة؟ لماذا وهى التى فعلت بى كل ذلك؟! لماذا؟! لماذا؟!

أكاد أرى ابتســـامة تختلس الفرصـــة لتقبل فمى.. . ترى أهذه هى الابتســـامة التى كنت دوماً أسخر بها من العالم ومن كل شئ حولى؟!

من أمى، أمى التى دوماً أرهقتنى، التى دوماً كانت تخيفنى و تفرض علىَّ كل شـــئ بغيض لا أريده بحياتى التى كانت دوماً تؤدى بى إلى نار الليـــل و عذاب قرار الانتحار.. كل اشـــتعال لضوء الظلام.. أمى من حملتنى فوق طاقتى مدى حياتى و جعلت منى بشـــراً يشـــتهى أن يرى نفســـه فى المرآة بعد أن صار ينظر إلى نفسه فى مرآة غرفته فلا يرى إلا عبوساً كبيرًا.

أم من أحببت و خذلنى أمام صرحٍ من الثقة و الحب والأمان والتضحية اللامنتهيـــة. لن أتذكره الآن فقد أوتيت من ســـقمى ما يكفينى لأغادر حياتكم و أنا أحمل من خيبة أملى ما يكفينى.

كفاكِ ذكرى، كفـــاكِ حزنا، أمازلتِ حية و عندك من الذاكرة ما يبقيكِ على هذه الحياه؟! كيف تحافظين على بضعٍ من أشلائك و أنت فقدتِ منها ما يكفيكِ لتكونى الآن بين يدى الرحمن؟!

أأنـــت قوية إلى هذا الحد؟! الحد الذى يجعلك متماســـكة حتى فى أقسى أوقاتك؟ أأنت إلى هذا الحد متشبثة بالحياة؟ إذن إتركى نفسك لترتفعى إلى الأعلى، ولا تنظرى إلى الأسفل فتسقطى ثانية إلى الأعماق و هذه المرة ســـتختفى وتنهار معك أشلاؤك القوية و روحك النقية.

مـــن هذا الذى يعلم بمجيئك إلى الأعمـــاق؟ من الذى يعلم بقرارك الآن غير الله و الشـــيطان و أنت و.. قرينك الذى يبث القوة بداخلك الآن. نعم إنه قرينك، هو يداعبك و هو يبتسم فخراً بقوتك. قرينك الخفى الذى كان يقبلك سهواً وأنت تغفلين و كان يحيطك بذراعيه و أنت تأكلين، وأنت تبكين، وأنت تقبلين صورة جدك الذى ســـبقك إلى الله. كم تشـــتاقين له الآن، كم تحلمين أن يصحـــو من غفوته بضعاً من الســـاعات ليحتضنك بقوة و احتواء. اشتقت إليك جدى، اشتقت لحضنك و حبك المنزه من كل شـــئ عدا الحنان.

ماذا يقول لكِ قرينك الآن؟ هل هو يقبلك قبل الموت؟ أم هو يريدك أن تبقى فى الحياة؟ و لِمَاذا لم يساعدك قبل اتخاذ القرار؟! أهو يعلم بقوتك و عنادك و ثباتك على قراراتك مدى الحياة، فحبس أنفاسه و قاوم إيقافك و تركك تذهبين و هو يعلم أنك ســـتعودين سالمة فى حضن وسادتك الصغيرة؟ كم من أمانى كنت تريدين تحقيقها و لكن توقفتِ عندما خُذلتِ؟

تطفو رويداً رويدًا إلى ســـطح المياه، طريقها مـــا زال طويلاً. ترى فى طريقهـــا الأسمـــاك و القروش و أســـراباً من الوحـــوش. بحق عينيك الخضراوين أهذه هى الحياة التى ظننتِ أنها لا تحوى ظلماً ولا أوجاعًا؟! هـــا انتِ ترين أن من عدالة الأرض أن جعلت الظلم فى أرضها و بحارها، أوجدت الظلم بكل مكان بها عدا الســـماء.

ها هو سطح الماء يقترب من جديد، ما أبعد الحياة عنك عندما يكون المـــوت نصب عين أحلامك، تكون لحظتها بحاجة لأن يربت أحدهم على كتفيك ليعيد إلى قلبك الحياه مرة أخرى.

ها هى فقاعات الحياة تعود مرة أخرى، هل ظننتِ أن الله ســـيتركك لسرابك وأوهامك يا جميلتى؟ هل ظننتِ أن الله قد ينسى عبداً أحبهُ؟ هـــل ظننتِ أن الله قد يوكلك إلى نفســـك لتودى بهـــا إلى الجحيم؟ هل كان بخاطرك أنه بحنانـــه و عطفه قد يدير ظهره عنك؟ كلا يا عزيزتـــى، إن الله لا يترك عبداً أحبـــه و دعاه و ترقبه من حوله كل ليله ليشكو همه و حزنه إليه.

هيا اتركى يد الله ترفعك إلى الحياة، إلى سطح الماء، إلى بداية الخلود المؤقت و التجربة الجديدة. كلنا يا جميلتى نحتاج لهبوط يجعلنا نفكر فى وجوده و حبه لنا.

***

الأحد - ١١ صباحا..

رجل على حافة سريرٍ يبكى، ينظرإلى الفراغ و يده تلامس شعرها و هو يهمس فى صوتٍ خافت فى أذنها:

- ها أنتِ عُدتِ حبيبتى، ترى لو كنتِ فارقتِ الحياة، ماذا كان سيحدث لى؟ كم كنتِ صامتة ولا أعلم عنكِ شيئاً.. كم كنت أشعر أنكِ تعيشـــين معنا ولكنك.. فى عالم آخر ملىء بالصمود و الركود.. كنـــتُ دوماً أقول لكِ يا ابنتى، أنـــتِ على حافة الخطر، و لم أكن

أعلم عنكِ شيئاً ولكن ثمة شيء فى الروح يقول لى إن وحيدتى و قرة عينى لا تشعر بالحياة، فتاتى مستيقظة ولكنها لا تفيق.

أحبك يا صغيرتى، أحبك كثيراً و أحب الحياة وأنتِ بها. أتذكرين حبيبتى عندما أنهكتكِ الحياة ولازمتِ الفراش أسبوعين و كنتِ تصارعين الحياة و كنت أنا جالس بجانبك أطلب من الله أن يعيدك إلى حياتى سالمة.. يومها رأيتك و أنتِ تقاومين، تحاولين، تصارعين للبقاء.. علمت يومها أن ابنتى قوية، صلبة، علمت أن من صلبى ناراً تحرق من يؤذيها و يشتعل بركان غضبها عندما تشعر أن أحداً يريد أن يرغمها على شيء ما.

حينها اطمأن قلبى و شعرت أنى تارك قطعة من صلابتى، وقوتى و حلمى. دقائق تمرعلىَّ وكأنها أعوام، هل لى بعينيكِ تخرج عن صمتها و تحادثنى ولو لمرة واحده أخرى، أرجوكى؟

أهذا أبى الذى يحبنى؟ أهو يحبنى بهذا القدر؟ لماذا لم يخبرنى يوماً بأنه يحبنى؟ أكاد أشعر بقطرة من عينيه على وجهى، أكاد أستشعر أنفاسه حولى، دوماً ما كانوا يقولون لى إنى أشبه أبى.. . فى قوة أبى، و صرامة أبى، و حدّة أبى، و حنان قلب أبى.. . إنى أفيق يا أبى، أفيق يا حبيبى وسأكون بجانبك، و سأبدأ من جديد.. أراد الله أن يمنحنى فرصة أخرى للحياة.. اشتقت إليك أبى و اشتقت إلى نصائحك و قُبَلك لى صباحاً مع كوب القهوة الدافىء الذى تمنحنى به إشراقاً طول نهارى مهما حدث لى عائدة أنا إلى تلك الحياة، إلى قرينى الحبيب، الذى دوماً هو بجانبى.

أكاد أستشـــعر نبضاً فى قلبى الصغير، أكاد أسمع وأرى بضعاً من أنفاســـى تداعبنى و توقظنى كطفلٍ لأمه يشتاق.

وها أنا أفتح عينى على أحضان أبى الذى لم أره يبكى قط منذ أشرقت علىَّ شمس حياتى، لقد أبكيت أبى، كم أنا ظالمة.. لأبدأ حياة جديدة، و أفكاراً جديدة، و لأغير من أشخاص حياتى، لن أعود لما كنت، و لأعانق السحاب.

ثمة أشـــياء صغيرة تعيد إلينا نبض الحياة مرة أخرى، و ثمة أشـــياء كبيرة تجعلنا نكره نبـــض قلوبنا لأنها فيها..

***

فـــى ليلة حب حلوة، بألف ليلـــة و ليلة، بكل العمر، هو العمر إيه غير ليلة زى الليلة الليلة، زى الليلة.

تذكرتهـــا، هذه هى الألحان التى كانـــت تداعبنى عند موتى، و أنا غارقة فى ظلمات البحر أبحث عن طوق النجاة، كانت الست تعلم بحبى لها فأهدتنى ألحانها العذبة لتقول لى عودى فما زال لدينا ليلة حب حلوة، بألف ليلة وليلة، ســـتأتى هذه الليلة عندما تعودين إلى روحك الطاهرة، النقية، و ستفرحين.. أرادت أن تعطينى أملاً فى الحياة و أملاً فى الصعود.

كلنا كلنا فى الحب سوا.. أحبك سيدتى.

***